

حالة الشعر في صدر الإسلام

لم يشهد الشعر العربي أزمة قوية في تاريخه الطويل مثلما شهدها في عصر صدر الإسلام الأمر الذي يؤكد عظم الحدث والتغيير الذي أصاب المجتمع العربي آنذاك ، إذ وجه الإسلام الشعر إلى خدمة المنهج التربوي والأخلاقي لمبادئه وعقائده ، وألزم الشعراء الانقياد بهذا النهج الجديد ، وتغيرت ملامح الصورة بشكل معاكس تماماً عما كانت عليه في الحياة الجاهلية ، فإذا كان الشاعر الجاهلي صوت قبيلته فيما مضى ، فقد أصبح الآن صوتاً لدولة الإسلام لا غيرها .

ذكر المؤرخون والباحثون أن الشعر في عصر صدر الإسلام قد ضعف وأصابه الفتور، وقد أثار الدارسون والنقاد هذه الأزمة قديماً وحديثاً ، إذ ذكر ابن سلام : ((فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير)) .

أما قول ابن خلدون فقد جاء موافقاً رأي ابن سلام ، إذ قال : ((انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام لما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الغوص في النظم زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأثاب عليه فرجعوا إلى دينهم))

وذهب إلى هذا الرأي أيضاً أحمد الهاشمي في كتابه (جواهر الأدب) في إن انشغال العرب وذهولهم بأسلوب القرآن ومعانيه وألفاظه وبين معاند ينلمس فيه مطعننا ومؤمن يستبينه ويستهديه ... فصار لهم صارفاً عن التشاغل بالشعر ... وذهب البعض في دعوة قلة الشعر وانصراف الشعراء عنه إلى دعوى هجر لبيد الشعر منذ أن هداه الله إلى الإسلام فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً وقد اختلفوا في هذا البيت ...

وعند مناقشة هذه الآراء ومنها رأي ابن سلام يتضح العكس لأن الإسلام أنكى جذوة الشعر وأشعلها إشعالاً فان ، أحداثه حلت من عقد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين ممن لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة لم تعرف في الجاهلية بشعر كثير قد كثر شعراؤها ، فضلاً على ذلك إن ابن سلام دلل على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن وكان يكفيه ما قاله : ((لم يدونوه وإنهم اكتفوا بروايته)) فان ذلك من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وان يسقط منه غير قليل أما قوله : ((بان العرب لهت عن قول الشعر وشغلت عنه بالجهاد)) فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وأما خلاصة القولين : قول ابن خلدون والهاشمي ينقضهما أيضاً ، واقع الحركة الشعرية الذي كان زاخراً بالنشاط الشعري المصاحب للإحداث المعبر عن المواقف والعواطف الإنسانية في كثير من المقطوعات والقصائد. وإذا كان التشاغل عن الشعر قد يصدق على شعراء المسلمين، لكنه لا يمكن إن يصدق مع شعراء المشركين والمعارضين ممن لم يشغلوا بالدعوة بل ان واقع الحركة الشعرية بين صفوف المعارضين قد شهد جيشانا وحوافز على القول ربما لم تكن مهياً لبعضهم قبل ظهور الإسلام .

أما مسألة هجر لبيد قول الشعر وانشغاله بالقرآن وتلاوته وعدم نظمه للشعر الا قليلاً أو بيتاً ، فيستندون إلى الرواية التي تذهب : إن عمر بن الخطاب أرسل إلى المغيرة بن شعبه واليه على الكوفة أن استنشد من قبلك من شعراء مصر ما قالوا في الإسلام فلما سأل لبيدا انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتاه بها وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر فكتب المغيرة إلى عمر بن الخطاب فأمر بزيادة عطائه تقديراً لموقفه .

إن مناقشة هذا الخير وما ينبني عليه هو إن ليبيدا لم يتوقف عن قول الشعر ولم يهجره ففي شعره ثروة ليست هيئته ولا قليلة تتضح فيها الروح الإسلامية ، وان جواب ليبيد السابق يفسر بأنه عرف ما أراده الخليفة من الاطمئنان إلى إيمان الشعراء وتمسكهم بعري الدين فأجاب الجواب الفطن .
وتذكر المصادر – على ما يبدو- إن الأصمعي أول من أثار الحديث عن مسألة ضعف الشعر ، ونوه عن هذه الازمة ، حينما نقل عن ابن قتيبة قوله :

((الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان وضعف ألا ترى ان حسّان بن ثابت كان قد علا في الجاهلية فإذا دخل في خير الإسلام لان وضعف ...)) إن أهم ما يمكن أن يناقش هذا النص ما يأتي :

- 1- قضية الانتقال والوضع الذي أصاب شعر حسان وحمل عليه الكثير من الغث لدوافع كثيرة ، منها ما هو سياسي أو تعصبي أو شخصي .
- 2- التحولات التي أصابت العصر آنذاك ، وعوامل التغيير في دور الشاعر المخضرم تجاه واقعه الجديد ، فكما اقترب الشاعر المخضرم من الإسلام منهجاً في حياته ، كلما تخرج أكثر من صناعته الشعرية من حيث الممازجة والمحافظة على قانون البداية الشعري الذي يمثل الرؤية والقبول الأكثر في الساحة النقدية آنذاك .
- 3- شاركت الحياة الجديدة فعلها الكبير في أزمة الشعر ، والإرباك عند الشعراء المخضرمين لأنها فرضت عليهم معاني جديدة وأسلوباً لغوياً يتناسب مع ما تحقق في ظل الإسلام من تغيير في منهج الحياة .
- 4- يبدو أن الزمن لم يكن كافياً لهؤلاء الشعراء كي يمنحهم الفرصة في إيجاد أسلوب شعري جديد ، يمتزج ويتناسب مع روح العصر الجديد .
- 5- يبدو ان التقريرية والنقل الحرفي المباشر للكثير من المعاني القرآنية التي تضمنتها القصائد الإسلامية كانت سبباً في ضعف الشعر ، وحرمان الشاعر من الخلق الشعري وحالة الإبداع ، إذ تحول الشاعر من مبدع إلى ناقل لما يسمع .
- 6- ومن النقاد من اشار إلى ظاهرة الارتجال في الشعر الإسلامي واعتبارها سبباً في ضعفه ، وابتعاداً عن الشعر الحولي ، فهذه السرعة والآنية لا تعطي أو توفر الفرصة الكافية للشاعر في تهذيب لغته ، وإبداع صورته وانتظام المعاني ، واكتمال التجربة الشعرية .
- 7- إن فترة صدر الإسلام شهدت ظهور الكثير من الشعراء الذين برزوا إلى الساحة الشعرية ليمثلوا بشكل أقرب الدواعي السياسية والدينية أكثر مما كانوا يمثلون الرؤية الفنية الخاصة .